# الفصل الخامس
# المكتبات والكتب في بلاد اليونان

نحاول في هذا الفصل أن نعالج تطور الكتب والمكتبات في بلاد اليونان القديمة. وبلاد اليونان القديمة اصطلاح يجب تحديده بوضوح عبر الزمان والمكان.

فبلاد اليونان الأصلية هي تلك الكتلة القارية والتي تشبه الجزيرة التي تقع في جنوبي شرقي شبه جزيرة البلقان، يضاف إليها جزائر بحر إيجه. ولكن حدث أن اليونانيين، من أقدم العصور استوطنوا في السواحل الغربية لآسيا الصغرى وأسسوا فيها مستعمرات كثيرة ازدهرت فيها حضارة راقية ، كذلك توسع اليونانيون غرباً في صقلية والبر الإيطالي وشبه جزيرة ايبريا وسواحل فرنسا الجنوبية. ثم اكتشفت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الحضارة المينوئية في جزيرة كريت فأضيفت هذه الحضارة إلى الحضارة اليونانية. ولقد توسعت بلاد الإغريق توسعاً هائلاً زمن الإسكندر الكبير الذي غزا الشرق سنة ٣٣٠ ق.م واحتل آسيا الصغرى بكاملها وسورية الطبيعية ومصر وبلاد الرافدين وإيران وما وراءها. وتبع هذا الغزو العسكري استيطان اليونان في تلك الأماكن وانتشار اللغة اليونانية والعادات اليونانية فيها بشكل سريع وعام.

ولقد تأسست في الشرق بعد وفاة الإسكندر ثلاث دول إغريقية ظلت موجودة حتى الفتح الروماني للشرق في أواخر القرن الأول ق.م، فقد تأسست مملكة يونانية في آسيا الصغرى عاصمتها برغامم ولعبت دوراً ثقافياً وسياسياً هاماً. كذلك أسس السلوقيون إمبراطورية كبرى جعلوا مركزها سورية وعاصمتها أنطاكية استمرت في الوجود حتى سنة ٦٤ق.م عندما احتل القائد الروماني بومبه سورية وضمها للإمبراطورية الرومانية. وأسس البطالمة مملكة قوية في مصر وجعلوا الإسكندرية عاصمتهم ونشروا الحضارة اليونانية والتقاليد اليونانية في أرجاء الشرق واستمروا في الحكم حتى أوائل العهد المسيحي. لذلك كلمة بلاد اليونان تتسع لتشمل بلاد اليونان بكاملها مع جزيرتي قبرص وكريت والشرق القديم بكامله فترة تقارب القرون الثلاثة.

أثبتت الحفريات التي أجريت في عدد من البقاع وجود مجموعات متناثرة متفرقة من اللوحات الفخارية، مما يوحي بوجود مكتبات من نوع ما في تلك الأماكن. ولكن لا شيء مؤكد. ولقد ران على البلاد اليونانية جهل مطبق عندما أتى غزاة جهلة من الشمال احتلوا البلاد وهم الدوريون.

هذا وإن عصر النهضة اليونانية ـ أو ما يسمى باسم العصر الكلاسيكي اليوناني ـ يبدأ منذ حوالي القرن السادس ق.م ويمتد حتى القرن الثالث ميلادي. ولكن ليس من المؤكد وجود مكتبات مهمة في القرن السابع ق.م وإنما هي إشارات هنا وهناك.

وعلى الرغم من أن هناك رواية تذكر وجود مكتبة عامة في أثينا في القرن السادس ق.م، وأن هذه المكتبة مكتبة خاصة جمعها الطاغية بيزيستراتوس ووقفها عند وفاته على أهل أثينا، إلا أن كل الدلائل تشير إلى عدم وجود مثل هذه المكتبة وأنها من نسيج الخيال.

كذلك ظل تاريخ المكتبات في بلاد اليونان في القرن الخامس ق.م غامضاً. وإن تكن الأرضية أصبحت صلبة من أجل وجود مكتبات بالمعنى الحقيقي للكلمة. ويعتقد أن أفلاطون (٤٢٧–٣٤٨ق.م) لا بد وأنه امتلك مكتبة خاصة ذات حجم ووزن. على الرغم من عدم استطاعتنا إثبات ذلك بوضوح.

أما أرسطو تلميذ أفلاطون والذي عاش بين سنتي ٣٨٤ و٣٢١ ق.م فعندنا معلومات موثوقة ومؤكدة عنه وعن مكتبته الخاصة. ذلك أن أرسطو أسس مدرسة لتعليم الفلسفة وهي المشهورة باسم الليكيوم Lyceum. وهناك كان أرسطو يعلم تلاميذه ويحدثهم وهو يمشي بين أروقة مدرسته تلك. ولقد امتلك أرسطو مكتبة مهمة تنوف على بضع مئات من الكتب اشترى هو بعضها والبعض الآخر أهدي إليه، ويبدو أنها كانت متاحة لجميع طلابه.

ولقد اختلف الرواة في مصير هذه المكتبة، وإن يكن الرأي الغالب أن القائد الروماني سولا جلبها إلى روما كغنيمة حرب من بلاد اليونان. ولا تذكر مكتبة أرسطو هذه على أنها مكتبة خاصة مهمة فحسب، وإنما تذكر أيضاً على أنها النموذج الذي احتذته مكتبة الإسكندرية فيما بعد، ونموذج لجميع المكتبات الأكاديمية ككل.

كذلك امتلك عدد من الأفراد مكتبات خاصة بهم مثل يوريبيدس Euripedes (٤٨٠–٤٠٦ق.م) الشاعر والمسرحي المشهور، ومثل ديمو ستنيس Demosthenes الخطيب المشهور (٣٨٤–٣٢٢ق.م) ومثل إقليدس (٤٥٠–٣٧٥ق.م) حيث تواترت الروايات عن

وجود مكتبات خاصة بهم استعملوها في دراساتهم وأبحاثهم.

ولقد وجد مكتبات عامة مفتحة الأبواب لعدد معين أو لفئة معينة من الجمهور، في عدد من الأماكن في آسيا الصغرى وجزائر البحر الإيجي كما هي الحال في مكتبة مدينة هرقلية في مقاطعة بيتينيا. كذلك كشفت الحفريات في عدد من جزر بحر إيجه، كما في كوس، عن وجود مكتبات عامة. فقد وجدت نقوش على الجدران فيها ذكر لمنح قدمت إلى المكتبة هي كتب ونقود.

ومن المهم أن نلاحظ أن شيوع مسرحيات اسخيلوس وصوفوكليس ويوريبيدس، والرغبة في عدم تسرب نصوصها خارج البلاد أو سرقتها أو إساءة استعمالها، كل ذلك قاد إلى أن يؤسس في أثينا في القرن الرابع ق.م مكتبة عامة أودعت فيها نسخ رسمية من المسرحيات المذكورة آنفاً، ومن غيرها، حيث يستطيع الجمهور الاطلاع عليها، ولكن لا يسمح بإعارتها إعارة خارجية. وهذا أقدم مثل على مكتبة عامة كانت مركزاً للإيداع القانوني.

هذا ويجب أن نلاحظ أن أشهر مكتبة يونانية، وهي في نفس الوقت أشهر مكتبة في التاريخ القديم كله، لم توجد على البر اليوناني وإنما وجدت في الإسكندرية في مصر. فقد انضمت مصر إلى حكم الإسكندر الذي احتلها وأسس فيها مدينة الإسكندرية نسبة إليه. وتمكن أحد قواده واسمه بطليموس سوتر الأول أن يؤسس مملكة في مصر، وذلك بعد وفاة الإسكندر وتمزق إمبراطوريته. ولقد سميت هذه السلالة باسم مؤسسها وعرفت باسم البطالمة أو البطالسة واستمرت تحكم مصر وأقساماً مما حولها قرابة ثلاثة قرون. وقد حملت هذه المملكة الشعارات الهيلينية وتبنتها ونشرتها في أصقاع كثيرة. ولقد بنى بطليموس هذا عدداً من الأبنية المهمة وجذب إليه العلماء والباحثين من جميع أنحاء العالم اليوناني.

وقد لجأ إلى بطليموس عالم يوناني من أثينا اسمه ديميتريوس Demetrius، وحرض بطليموس على أن يؤسس مدرسة في الإسكندرية على غرار مدرسة أرسطو في أثينا (الليكيوم). وقد ضمت المدرسة هذه غرفاً للمحاضرات وقاعات للدرس وحدائق وأماكن لرصد النجوم ومتحفاً ومكتبة، ووضعت المكتبة في المتحف، وضمت هذه المؤسسة علماء وجغرافيين وفلكيين وأطباء ورياضيين ومهندسين ومحررين وشعراء وأدباء.

ولقد كانت مهمة هؤلاء العلماء متنوعة، فقد كان جمع التراث القديم وتحريره وتقديمه

للقراء إحدى المهام الجليلة لأولئك العلماء، ذلك أن البطالمة حاولوا جمع أغلب التراث الهيليني في مكتبتهم هذه. كذلك كان البحث الأصيل والتجارب العلمية ثاني مهمات هذه المؤسسة العلمية. ولما خلف بطليموس فيلادلفوس أباه على عرش الملك ورث منه حبه للدراسة والبحث وأولى المكتبة عناية خاصة، وعندما ضاقت مكتبة المتحف عن استيعاب الكتب الجديدة أسس فرعاً جديداً لها في معبد «الإله المصري سيرابيس» في القسم المصري من الإسكندرية وتسمى السيرابيوم على حين تسمى مكتبة المتحف مكتبة البروكيوم لأن مكانها في معبد البروكيوم Brucheiom .

ولا يمكن تقدير عدد الكتب التي وجدت في المكتبة ، ولكنه ولا بد عدد كبير جداً، لأن ملوك البطالمة حرصوا على أن يزودوا مكتبتهم هذه بنسخة واحدة على الأقل من كل كتاب معروف آنذاك، وكانوا يرسلون الوكلاء يجوبون أنحاء العالم المعروف آنذاك بحثاً عن الكتب.

ومن أبرز معالم مكتبة الإسكندرية أنه تولى منصب أمين المكتبة فيها باحثون وعلماء من الطراز الممتاز. ذلك أنه يوجد سجل لأسماء عدد من هؤلاء الأمناء وتواريخ توليهم مناصبهم وقد تعاقب بعضهم بعضاً لمدة قرن كامل (٢٦٢-١٦٠ق.م) وهم زينودوتس وكاليماخوس وأبولونيوس وأيراتو ستنيس وايرستوفافس وأبولونيوس الأيديوغرافي. ومن وجهة نظر المكتبيين فإن أشهر هؤلاء هو كاليماخوس الذي أوجد فهرساً شاملاً لمحتويات المكتبة، فإليه ينسب عمل من الأعمال لم تبق منه إلا نتف يسيرة، وقددعى هذا الفهرس باسم بيناكس Binakes وهو يعطي من أجل كل مؤلف اسمه ولمحة عن حياته وأسماء مؤلفاته. كذلك ينسب إلى كاليماخوس تقسيم الملفات إلى كتب أو أقسام من أجل سهولة استعماله. ويبدو أنه كان مهتماً بالتصنيف لأنه قسم فهرسه البيناكس إلى ثمانية فروع كبرى حسب الموضوعات وهي : الخطابة، التاريخ، القوانين، الفلسفة، الطب، الشعر الغنائي، المأساة، وأخيراً متفرقات. ولم يتمكن كاليماخوس من إنجاز عمله الضخم هذا فأكمله من أتى بعده وخاصة زينودوتس وايراتوستينيس.

ولقد ازدهرت مكتبة الإسكندرية ازدهاراً كبيراً فترة طويلة من الزمن، وجذبت إليها الباحثين والعلماء من جميع الأصقاع وفي مختلف الاختصاصات، وظلت تجلب لها الكتب من جميع الأماكن حتى غصت رفوفها بها، ويبدو أن المكتبة حوت، ولابد، القسم الأكبر من النتاج العقلي لعصرها، إن لم يكن كله. وهذا عمل جليل حقاً.

ولقد انحطت المكتبة عندما بدأ ملوك البطالمة بالانحطاط، فقد أهمل أواخر ملوك البطالمة المكتبة والعلم وخاضوا غمار حروب أهلية وخارجية ضد بعضهم بعضاً وضد السلوقيين في سورية وضد الرومان مما أدى إلى تلف ودمار قسم كبير من ملفات البردي. ولقد دمر جنود يوليوس قيصر قسماً كبيراً من المكتبة أثناء احتلالهم الإسكندرية، وعلى الرغم من أن مارك أنطوني حاول تعويض المكتبة عما فقدته إلا أنها استمرت في الانحلال. وقد احترق البروكيوم الذي يضم المتحف (المكتبة الرئيسية) سنة ٢٧٣م عندما احتل الإمبراطور الروماني أورليان مصر والإسكندرية في العام نفسه.

وأخيراً أحرق جمهور مسيحي متعصب سنة ٣٩١م السيرابيوم بقيادة أسقف الإسكندرية ثيوفيليس.

ولقد اتهم جمهور من المؤرخين؛ المسلمين أنهم أحرقوا المكتبة عندما احتلوا الإسكندرية وأن ذلك قد تم بناءً على أمر وجهه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو ابن العاص بحجة أن الكتب الموجودة فيها إما أن تكون موافقة لكتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى، وإما أنها مخالفة له فيجب إحراقها.

وأول من روي القصة رحالة مسلم من بغداد زمن صلاح الدين الأيوبي وتابعه آخرون. وفي العصور الحديثة انبرى الأوروبيون لهذه التهمة ودرسوها وتوسعوا بها وحاولوا إثباتها. ولكن البحث الحديث النزيه أثبت براءة المسلمين من هذه التهمة لعدة أسباب، منها أن المكتبتين الأصل والفرع زالتا من عالم الوجود قبل الفتح الإسلامي لمصر بزمن طويل ولأن يحيى النحوي بطل القصة ثبت أنه توفي قبل أكثر من عشرين سنة من قدوم المسلمين إلى مصر محررين... كما وأن إحراق الكتب وإتلاف مخلفات الحضارات السالفة ليس من شيمة الإسلام أو المسلمين، هذا الدين الذي يحض على العلم والتعلم ويحمي المغلوب إذا استسلم ويحترم الانسان كإنسان ويحترم نتاج العقول[1].

ويجب أن نلاحظ أن مكتبة الإسكندرية لم تكن الوحيدة في مصر في عهد البطالمة، فقد وجد عدد من المكتبات في عدة أماكن، كما في المكتبة الملحقة بمعبد حورس الذي بني في ادفو سنة ٢٩٠ ق.م، وكما في المكتبات الملحقة بعدد من المدارس والمعابد.

---

(١) من أجل مزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع الهام ارجع إلى كتابنا :
حمادة ، محمد ماهر. المكتبات في الإسلام ... بيروت، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧١م. ١٩-٢٤.

ولقد أسس سلوقس الأول الدولة السلوقية في سورية وظلت حية حتى سنة ٦٤ ق.م عندما ضمتها روما لإمبراطوريتها. وقد نشر السلوقيون الفكر الهيليني في الشرق وجذبوا إليهم الباحثين ولكن ليس على نفس النطاق الذي قام به البطالمة. فقد أسس انطيوخوس الكبير حاكم سورية السلوقي مكتبة كبرى في أنطاكية وفتح أبوابها للباحثين. كذلك أسس أنتيغونس غوناتس Antigonas Gonatus ملك مكدونيا مكتبة في عاصمة بلاده بيلا سنة ٢٥٠ ق.م. ولكن مكتبة الاتاليين في برغامم في آسيا الصغرى كانت أهم وأشهر ما أسسه خلفاء الإسكندر من مؤسسات ثقافية باستثناء مكتبة الإسكندرية، فقد أسس اتالوس الأول مكتبة في عاصمة ملكه برغامم، ولكن ابنه وخليفته يومينيس الثاني Eumenes II (١٩٧–١٥٩ ق.م) هو الذي جعلها مكتبة من الطراز الممتاز. وقد حاول يومينيس أن ينافس مكتبة الإسكندرية ولكنه عجز عن ذلك. وكانت هذه المكتبة مشابهة لمكتبة الإسكندرية من حيث أنها كانت معهداً تعليمياً ومكاناً للبحث والدرس وكانت تحت إدارة علماء أجلة.

ولقد حاول البطالمة ضرب مكتبة برغامم هذه، وذلك بأن منعوا تصدير أوراق البردي إلى دولة الاتاليين منعاً باتاً، ولذا لجأ القوم إلى جلود الحيوانات يستعملونها مادة كتابية. ولقد رفع سكان برغامم صناعة الجلود هذه إلى درجة رفيعة جداً من الناحية الفنية واشتهرت بذلك مدينتهم حتى أنها أعطت اسمها للرقوق التي تصنعها. ولقد انحطت المكتبة بعد حكم اتالوس الثاني (١٥٩–١٣٨ق.م)، وعندما احتل الرومان برغامم سنة ١٣٣ق.م صادروا بعض محتويات المكتبة وأرسلوها إلى روما. ويقال أن مارك أنطوني عوض كليوباترة عما أحرق من مكتبة الإسكندرية بكتب صودرت من مكتبة برغامم. ويبدو أن الإمبراطور أوغسطس أعاد للمكتبة قسماً مهماً من محتوياتها وازدهرت فترة من الزمان ثم أهملت وانقطعت أخبارها.

وأما في أرض اليونان نفسها التي سادها هدوء سياسي نسبي فقد أصبحت المكتبات شائعة، وظلت أثينا المركز العقلي والثقافي لبلاد اليونان، وقد انتشرت المكتبات العامة في البراليوناني ليس فقط في المدن الكبرى وإنما في المدن الأصغر وفي مراكز الريف المهمة. وكان يوجد في أثينا أكثر من مكتبة عامة واحدة إلى جانب المكتبات الأكاديمية ومكتبات الكليات والجامعات والمدارس الثانوية وما أشبه.

كذلك انتشرت عادة تأسيس مكتبات خاصة يمتلكها الأفراد الأغنياء. ولقد كثر عشاق

الكتب وجامعوها وغزرت الكتب نفسها وأصبحت في متناول عدد لا بأس به من الناس.

ووجد في بلاد اليونان الأصلية مكتبات متخصصة مثل المكتبات الملحقة بالمراكز الطبية ومعاهد تخريج الأطباء كما في معبد الاسكليبيون قرب ابيدوروس وكما في كوس وبرغامم والإسكندرية.

ولقد ارتبطت المكتبة في بلاد اليونان بالمعبد أو المدرسة وخصص لها عدد من الغرف في بعض الأروقة المعمدة. ولقد صفت الكتب إما في طاقات أو رصفت على أرفف واستعمل البردى والرقوق مادة كتابية .

والآن بعد أن روينا بإيجاز قصة المكتبات في العالم اليوناني؛ ننتقل لبحث الكتاب وتطوره.

**استعمل اليونانيون في كتابة كتبهم مواد كثيرة لعل أهمها :**

**أوراق البردي :**

يمكن القول إن أوراق البردى بدأت تظهر في بلاد اليونان الأصلية منذ القرن السابع ق.م وأصبح استخدامها ذائعاً كل الذيوع في القرن الخامس ق.م، وكانوا يستوردونها بكثرة من مصر. وأقدم أوراق بردي يونانية معروفة لنا يعود تاريخها إلى القرن الرابع ق.م، ولم يبق من ملفات هذه الحقبة سوى القليل النادر بحيث يصعب الوصول إلى أحكام عامة. ولا تأخذ معلوماتنا بالإزدياد إلا منذ القرن الثالث ق.م، وذلك بالاعتماد على الكشوف الغنية من ملفات البردي اليونانية التي عثر عليها في مصر وآسيا الصغرى.

إن اكتشاف هذا العدد الكبير من ملفات البردي في مصر وآسيا الصغرى يدل على ازدهار الحياة العقلية في القرن الثالث ق.م في ذينك القطرين. وقد نشأ من تفاعل الفكر اليوناني الهيليني مع الفكر الشرقي فكر جديد اسمه الفكر الهيلينيستي أي الفكر اليوناني المتأثر بالفكر الشرقي. وسميت تلك الحضارة الحضارة الهيلينستية. وأصبحت الإسكندرية عاصمة هذه الحضارة وجذبت إليها الباحثين من كل مكان. ولقد امتلأت مكتبة الإسكندرية بملفات البردي. وكانوا يوزعون محتويات المؤلفات الهامة الطويلة على عدة ملفات متساوية الطول، مع اعتبار بدايات ونهايات الفصول.

**شكل الكتاب اليوناني وكتابته :**

يبدو أن اليونانيين استخدموا برديات طولها بين ستة أمتار وسبعة. وإذا ما طوي المخطط أو لف فإنه يأخذ شكل أسطوانة قطرها من خمسة إلى ستة سنتمترات يسهل الإمساك بها، وأما عرضها فكان يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ سنتمتراً. أما الجزء المكتوب عليه من ورقة البردى فكان يتفاوت من حيث المساحة. ففي المخطوطات الفاخرة كانت الهوامش أهم وأكبر من نظائرها في المخطوطات العادية. وكان ارتفاع عمود الكتابة إما ثلثي أو خمسة أسداس اللفافة، كذلك تختلف المسافة بين عمود وآخر وحتى المسافات بين الأسطر كانت متفاوتة، وحتى أن بعض الأعمدة فكانت تحوي سطوراً أكثر من غيرها.

كانت الحروف الكبيرة تستعمل في المؤلفات الأدبية، ولم تترك مسافات تفصل بين الكلمات، مما أدى إلى صعوبة القراءة. وكانت الكتابة في المخطوطات خطاً محسناً من نوع معين يتعلمه الكاتب، واتخذت طابعاً شخصياً من كاتب إلى كاتب. ويكتب كل حرف بشكل منفصل عن غيره من الأحرف. أما الكتابة السريعة العادية فاستعملت في الحياة العامة.

وكان الكتاب يكونون طبقة كبيرة مثقفة وكانوا يكافؤون بموجب عدد الأسطر التي يكتبونها. وعندما ينتهي الكاتب من عمله تعاد قراءته لتصحيحه من قبله أو قبل غيره.

**العنوان والصور التوضيحية :**

كان عنوان الكتاب يذكر عادة في نهاية النص. هذا وإن أقدم ملفات البردي اليونانية لا تحمل عنواناً، وكان تمييزها عن بعضها بعضاً يتم عن طريق بيان مؤلفها وأول كلمة من النص الذي بها، كما فعل كاليماخوس في فهرسه. وكانت هذه المخطوطات الملفوفة بشكل لفافات موضوعة إلى جانب بعضها تثير صعوبات في تمييزها عن بعضها وذلك بسبب عدم وجود عنوان واضح على هذه اللفافات، مما اضطر القائمين على خدمتها إلى التفكير في وضع نوع من البطاقات على حافاتها العليا.

أما الصور التوضيحية فيبدو أنها لم تكن نادرة في ملفات البردي، وإن لم يصل إلينا منها إلا العدد القليل الذي تدور موضوعاته حول الرياضيات وغيرها من الموضوعات المشابهة. وكانت صورة المؤلف ترسم أحياناً.

**تجارة أوراق البردي والكتب في العصور القديمة :**

استخدم الإغريق كمية ضخمة من البردي، ومن بعدهم الرومان الذين أخذوا عن اليونان استعمال ملفات البردي ضمن ما أخذوه عنهم من أساليب الحضارة الأخرى. وظهر في السوق تدريجياً عدد كبير من أصناف البردي عرف بعضها بأسماء أباطرة الرومان مثل ملفات أوغسطس وملفات كلوديوس وغيرها.

كذلك تأسست في روما، في أواخر عهد الإمبراطورية، مصانع كانت تستورد من مصر نبات البردي الخام، حيث كان يصنع منه رزم وحزم من الأوراق. وقد احتكر البطالمة قبل الرومان تجارة البردي.

وقد انتشرت تجارة الكتب في العالم اليوناني، فهناك إشارة إلى أنه كان في أثينا في القرن الخامس ق.م مخازن لتجارة الكتب، وقد ازدهرت تجارة الكتب في العهد الهيلينستي وخاصة في مصر، ويعود الفضل في ذلك إلى مكتبة الإسكندرية التي أصبحت مركزاً مهماً من مراكز تجارة الكتب، وكان وكلاء ملوك مصر يجوبون أرجاء العالم المعروف آنذاك بحثاً عن المخطوطات لشرائها وإرسالها إلى مصر.

وتعد مجموعة أوراق البردي التي وجدت في خرائب مدنية هيركولانوم في إيطاليا من أقدم مجموعات البردي وهي تضم ١٨٠٠ ملف ومحفوظة في المكتبة الأهلية في نابولي. وهناك مجموعة أخرى مشهورة من الملفات يقارب عددها ٨٠٠٠ ملف وهي محفوظة في المكتبة الأهلية في فينا، وهناك مجموعات مهمة في كل من المتحف البريطاني والمكتبة البودلانية في جامعة اكسفورد والمتحف المصري في القاهرة.

**الرقوق والجلود واستعمالها :**

سبق أن ذكرنا في فصل سابق أن البردي تعرض منذ القرن الثالث ق.م لمنافسة مادة كتابة جديدة هي جلود الحيوانات. وعلى الرغم من أن استعمال جلود الحيونات مادة كتابية قديم كل القدم، إلا أن استعماله بكثرة وبشكل فني، حتى حل محل البردي، بدأ منذ القرن الثالث ق.م وتم ذلك في مدينة برغامم التي أعطته اسمها.

ومن الواضح أنه كان من اليسير طي جلد الرق بنفس طريقة ورق البردي. ولا ريب أن كتب الجلد الأولى كانت على شكل ملفات، ويبدو أنها كانت تقليداً تاماً لكتب البردي وربما ذلك بحكم العادة. كذلك استخدم الرق في تجليد لفائف البردي، وربما كان هذا

أول تاريخ لنشأة تجليد الكتب في العالم.

**ظهور الكتاب غير المطوي : الكتاب الكراس ذي الصفحتين المتقابلتين.**

يعد ظهور الكتاب الكراس نتيجة ثانية من نتائج استعمال الرقوق مادة للكتابة. ذلك أن مساوئ الكتاب الملف، ولا سيما من ناحية التداول اليومي، كثيرة وواضحة. وهناك عيب جوهري أساسي من هذه العيوب، وهو ضرورة طي الكتاب في اتجاه عكسي بعد قراءته الأولى، إذا ما أريد قراءته ثانية. وكانت هذه العملية شاقة حتى في حالة استعمال عصا خاصة كانت تلصق بأول البردية للمساعدة على نشرها وطيها.

وقد أدى ذلك إلى تلف محسوس وكبير بالنسبة للبرديات المقروءة بكثرة. وكان ذلك صحيحاً بالنسبة للبردي، أما بالنسبة للرق فقد كان الأمر على العكس.

وعندما شاع استعمال الرق في صناعة الكتب، فقد خطر للناس أن يجعلوا للـــرق الشكل الذي كان للألواح الشمعية التي كانت شائعة في بلاد اليونان منـذ أبكـر العهـــود. وقد تحقق هذا التقدم في أوائل عهد الإمبراطورية الرومانية، وأطلق على هذا الشكـــل الجديد للكتاب الجلدي المسطح ذي الكراريس المتعددة والصفحتين المتقابلتين اســـم Codex أي الكراس. وقد ظل دون تغيير يذكر إلى أيامنا هذه بعد تغلبه على الملف.

وقد وصلت إلينا بضع صفحات من هذه الكراسات. وترجع إلى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي. وقد عثر في مصر، في الفترة الأخيرة على مخطوطات ترجع إلى القرون الثاني والثالث والرابع الميلادية وهي بشكل الكراس، مما يدل على تغلغل شكل الكراس في وقت مبكر حتى في موطن ملفات البردي الأصلي. ولقد ظل لفترة من الزمن يستعمل الملف والبردي إلى جانب الجلد والكراس في مصر حتى اندثر الشكل والمادة معاً. ومنذ القرن الخامس الميلادي انقرض نهائياً الكتاب الملف وحل محله الكراس.

وكانت معظم الكراريس مكونة من عدة ملازم تحتوي كل منها على عدد معين من الأوراق. وبشكل عام كانت الملزمة الواحدة تحوي ورقتين أو ثلاث أو أربع. وكانت أحجام هذه الكراريس صغيرة في القرون الأربعة الأولى إذ أن عرض الكتاب كان يبلغ ثلثي طوله تقريباً. وواضح أنه كان في ذلك العصر أحجام معيارية معينة لإنتاج الكتب، وذلك عن طريق ثني الورقة مرة أو مرتين، كما هو الحال في الوقت الحاضر. ثم بدأت

المعايير الكبيرة بعد ذلك في الظهور والانتشار وذلك بدءاً من القرن الخامس الميلادي. وكان هناك ميل لترك هوامش كبيرة في المخطوطات الفاخرة. في حين كانت المخطوطات العادية تملأ صفحاتها بالكتابة حتى نهايتها. ومع ذلك فقد روعي ترك هامش جانبي للصفحات إلى جانب الهوامش العليا والسفلي.

**العنوان وترقيم الصفحات ووسائل الإيضاح :**

لقد نظم الكراس والمواد فيه كما كانت تنظم المواد في الملف، حتى أن عنوان الكتاب كان يوضع في آخر الكتاب، ولم ينتشر وضع عنوان الكتاب في أوله ومفتتحه إلا في بداية القرن الخامس.

ولكن الشيء الجديد الذي أتى مع الكتاب الكراس هو ترقيم الصفحات. وقد أصبح الترقيم في الكتاب الكراس ذا أهمية حقيقية، على حين لم يكن له أي معنى أو أهمية في حالة الكتاب الملف. وقد اقتصروا أول الأمر على ترقيم الأوراق لا الصفحات، ولكن ذلك كان الخطوة الأولى نحو ترقيم الصفحات.

كذلك بدأت الصور ووسائل الإيضاح تظهر في الكتاب الكراس بشكل أكثر مما كانت تظهر في الكتاب الملف. وكانت تحوي صوراً حقيقية توضح بعض النصوص في الكتاب، كما كان هناك صور زخرفية.

ونجد في المخطوطات اليونانية والقبطية التي ترجع إلى القرن الرابع الحرف الأول من كل فقرة من فقرات الكتاب مكبراً وملوناً ويغلب عليه اللون الأحمر ومزيناً بأقواس رأسية. واستخدم الكتاب في نسخ الكتاب الكراس كتابة خاصة متقنة أخذ شكلها يزداد ثباتاً تدريجياً.

وكانوا يستعملون للكتابة على الرق الناحية المجوفة من قصبة ريش الطيور الكبيرة كالنسر والغراب والبط. وعن هذه الريشة أتى ريش الأوز في العصر الحديث ومن بعده الريش المعدنية المستعملة الآن.

وأما الحبر، فكان تركيبه لا يختلف عن تركيب الحبر المستعمل في الكتابة على ورق البردي. واستخدم منذ القرن الرابع، إلى جانبه، حبر معدني ضارب إلى السمرة.

ونحن لا نعلم شيئاً ذا غناء عن طريقة تجليد كتب الكراس القديمة، وغالباً كانوا يقنعون بتغليف الكتاب بغلاف من الرق. ومع هذا فقد عثر المنقبون في بعض المقابر المصرية على

عينات من التجليدات القبطية؛ استعمل فيها الجلد وتحمل آثاراً زخرفية جميلة ويرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي.

obeikandl.com